الفصل الرابع :

السنة النبوية المطهرة والتربية البيئية

مقدمة:

لقد اهتم الإسلام بالبيئة وحمايتها والمحافظة عليها من التلوث ومن الإخلال بها سواءٌ تخريبها أو إفسادها، فمنذ إشعاع نور الهداية فقد بينت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة طبيعة علاقة الإنسان ببيئته، وطرق تعامله مع مواردها الطبيعية، ورسخت لديه القواعد لحماية البيئة. وإن إتباع التعاليم الإسلامية التي وردت في القرآن الكريم والسنة المطهرة كفيلة بالحفاظ على البيئة وحمايتها.

وقد نَظَّمَ الإسلامُ العلاقة بين الفرد والجماعة، فالفرد لا يمكن أن يكون بمعزل عن الآخرين، إنما هو جزء من كل، فهو مسئول عن نفسه ومجتمعه الإنساني، ثم إن من مقتضى المسؤولية التنبيه وإيقاف أي إساءة من قبل الغير للبيئة الإنسانية، لأن تدهور النظام البيئي يهدد البشرية جمعاء؛ سواء الذين ساهموا في أذيّة البيئة، أو الذين لم يساهموا، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **مثل القائم على حدود الله والواقع فيها؛ كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على مَنْ فَوْقَهُم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا** » وبهذا يتحقق مبدأ الرقابة التي تسعى إليها التربية البيئية العالمية.

فالإسلام يتميز بالاعتدال والتوازن في كل شيء، ونبذ الإسراف والاستغلال غير المدروس، وتنبع هذه الفلسفة من الآيات التي تبين أن المولى عز وجل قد خلق مكونات البيئة وعناصرها وثرواتها بقدر وتوازن حيث يقول جل وعلا: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر، الآية 49)، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان، الآية 2)، ويقول عَزَ من قائل: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ (الحجر، الآية 19)؛ أي أن كل ما خلقه الله مقدرًا كمًّا ونوعًا.

السنة المطهرة .. والحفاظ على النباتات والزروع:

ويبين الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - أهمية المحافظة على البيئة وتنميتها، حيث قال: (ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة) رواه مسلم، وهذا يدل على أهمية البيئة وتنميتها.

ولا يخفى على أحد أهمية النباتات والغابات في تنقية الهواء من التلوث وإنتاج الأوكسجين الضروري للحياة، وحماية التربة من الانجراف والتخفيف من خطر السيول والمحافظة على المياه، كما أنها تشكل الغذاء والمأوى للكثير من الحيوانات، حيث قال صلى الله عليه وسلم: « **إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها** ». وقال أيضًا: « **من قطع سدرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثًا وظلمًا، بغير حق يكون له فيها، صوب الله رأسه في النار** ».

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى الإنسان خليفة في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الأنعام، الآية 165)، والغاية من الاستخلاف هو الاختبار. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعلمون فاتقوا الله** » وهذه الخلافة تعني أن الإنسان وُصي على الأرض والبيئة وليس مالكًا لها، يديرها كما أمره الله، ولا يتصرف فيها بأنانية كأنها له وحده دون بقية المخلوقات وإن الالتزام بتحقيق الاستخلاف شرط

للنجاة من العذاب في الآخرة وأن مبدأ الثواب والعقاب في الإسلام دافع قوي للإنسان في السير لإصلاح البيئة وعدم الإفساد فيها .

وكذلك حث الإسلام على محاربة الفقر والدعوة إلى العمل وزارعة الأرض وعمارتها. فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (الملك ، الآية 15). ويقول صلى الله عليه وسلم: « **طلب الكسب فريضة على كل مسلم** » ويقول أيضًا: « **كاد الفقر أن يكون كفرا** » وقال الإمام على رضي الله عنه: « **لو كان الفقر رجلًا لقطعت رأسه بسيفي هذا** ».

ومن جهة أخرى فقد وضع الإسلام قواعد إيجابية في استثمار الأراضي والانتفاع بها، وبذلك فهو يقضي على مشكلة كبيرة طالما عانت منها الشعوب ألا وهي مشكلة التصحر؛ نتيجة إهمال الأراضي الزراعية. فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: « **من كانت له أرض فليزرعها، أو ليمنحها أخاه، فإن أبى فليمسك أرضه** » رواه البخاري، فالمسلم مطالب بأن يزرع أرضه بنفسه، أو يتيح لغيره زراعتها دون مقابل، أو يعطي أرضه لمن يزرعها ويتحمل جانبًا من نفقات الإنتاج مقابل شطر من الناتج، وهي المزارعة. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **من أعمر أرضًا ليست لأحد فهو أحق بها** » رواه البخاري .

ولقد أثبتت الدراسات الحديثة أن الأشجار والنباتات الخضراء تلعب دورًا مهمًا في تنقية الهواء وتخليصه من كثير من الملوثات[1]. كما أنها مصدرا مهما جدًا لإنتاج غاز الأكسجين اللازم لتنفس الإنسان والحيوان. ففي عملية "البناء الضوئي" التي تقوم بها النباتات الخضراء لصنع غذائها، تقوم بامتصاص غاز ثاني أكسيد الكربون وينطلق منها غاز الأكسجين. وهذه العملية مهمة جدًا لتحسين نوعية الهواء الجوي، فالنباتات تمتص أحد الملوثات، وهو غاز ثاني أكسيد الكربون، وتبث إلى الهواء الجوى كميات من غاز

(1) د. حسن أحمد شحاتة ، التشجير قضية قومية ، مجلة عالم الكيمياء ، العدد 27-2003م ص5.

الأكسجين. ولذلك، تعدّ الأشجار والنباتات الخضراء الرئة الحقيقية لهذه الأرض التي نعيش فيها.

ولقد أدرك رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم هذه الحقائق منذ ما يزيد عن (14) قرنًا، فنراه يأمر المسلمين والمحاربين منهم وفي أثناء الغزوات والحروب بعدم اقتلاع الأشجار أو حرقها. وقد اقتدى الصحابة رضوان الله عليهم بهذا النهج الكريم، فها هو أبو بكر الصديق يوصي يزيد بن أبي سفيان، لمّا بعثه على جيش الشام، فيقول له: "إني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة ولا صبيًا، ولا كبيرًا هرمًا، ولا تقطعن شجرًا مثمرًا، ولا نخلًا، ولا تحرقها، ولا تخربن عامرًا، ولا تعقرن شاة ولا بقرة إلا لمأكله، ولا تجبن ولا تغلل".

كما أنه صلى الله عليه وسلم كان يحث الناس على الاستزراع، وكان يدعوهم إلى الغرس والزرع، حتى ولو في آخر لحظات العمر. فقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: « **إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها** »[1].

ويقول صلى الله عليه وسلم أيضًا: « **من كانت له أرض فليزرعها، فإن لم يزرعها فليزرعها أخاه** »[2].

ولقد فهم الصحابة مغزى هذا التوجيه الكريم، وطبقوه في حياتهم العملية بكل إخلاص طمعًا في ثواب الله، وعمارة الأرض، ورخاء الإنسانية. فيؤثر أن الصحابي أبا الدرداء غرس شجرة جوز، وهو شيخ طاعن في السن، فسأله أحدهم: أتغرس هذه الجوزة وأنت شيخ كبير وهي لا تثمر إلا بعد كذا وكذا من السنين؟ فأجابه أبو الدرداء: وماذا على أن يكون لي ثوابها ولغيري ثمرتها.

وكان شعارهم: غرس لنا من قبلنا فأكلنا، ونحن نغرس ليأكل من بعدنا.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه.

(2) رواه مسلم.

وعن جابر قال: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: « **من أحيا أرضًا ميتة فهي له** »[1].

وقد حفلت السنة بالأحاديث الصحيحة التي تحض على الغرس والزرع، ومنها، قوله صلي الله عليه وسلم: "ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السبع فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة"[2].

السنة المطهرة .. والحفاظ على الغذاء:

من المؤكد والثابت، أنه ما من شيء فيه فائدة أو خير للإنسان إلا وقد أمر به الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم وما من شيء فيه ضرر أو شر للإنسان، إلا وقد نهى عنه، وفي ذلك يقول الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم: « **لا ضرر ولا ضرار** »[3].

ومن الأمور المتفق عليها اليوم أن الغذاء الملوث يؤذي الإنسان، ويسبب له الضرر، ويصيبه بالمرض. ولذلك، فإن بيع الأغذية الملوثة يعدّ من الأمور التي تلحق الضرر والأذى بالمسلمين، ولذلك يؤثم من يقول به أو يتسبب فيه.

فهذا القول البليغ: « **لا ضرر ولا ضرار** » قول عام يدخل تحته كل نوع من أنواع التلوث الذي يؤدي المسلم ويسبب له الأمراض. وهذا القول يوضح سماحة الإسلام وحرصه على الإنسان وصحته.

وهذا الحديث الشريف يدخل في إطار حرصه صلي الله عليه وسلم على حماية الإنسان من كل ما يضره، وهو يدخل في إطار النواهي، التي نهى عنها صلي الله عليه وسلم وهو أيضًا يدخل في مجال مكافحة الغش والتدليس الذي انتشر في هذه الآونة.

السنة المطهرة .. وحماية الإنسان:

وحتى إن الإسلام حرم كل ما من شأنه أن يؤدي بالإنسان إلى التهلكة والإفساد

---

(1) رواه أحمد والترمذي.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه ابن ماجه.

في الأرض، فقد حرم المخدرات والمسكرات فقال صلى الله عليه وسلم: « كل مسكرًا حرام ». ولقد أثبت العلم أضرار المخدرات والمسكرات على صحة الإنسان لذلك فإن تحريم الإسلام لها لم يأتِ عن عبث بل جاء نموذجًا إسلاميًا فذًا لحماية الإنسان من الوقوع في التهلكة والرذائل وحماية بيئة الإنسان الاجتماعية والطبيعية من كل عوامل الفساد. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ (البقرة، الآية 195).

وهناك الكثير من المبادئ والأسس في الإسلام التي تحمي البيئة الإنسانية، وتمنع بالتالي مما هو أخطر من تدهور للبيئة، ألا وهو: تدهور الأخلاق، وانحطاط القيم، وانتشار الرذائل، ولهذا فقد أمر بالعدل والحرية والمساواة والصدق والأمانة، وحارب الظلم وكل أشكال الاستغلال فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ (البقرة، الآية 205). وبمعنى آخر فقد أحيا الإسلام الضميرَ في وجدان كل مؤمن وبذلك تتحقق الحياة الكريمة للإنسان.

ولم تقتصر أحاديثه الشريفة وأوامره ونواهيه على مجال مكافحة الغش والتدليس، ولكنها شملت حث المسلم على اتخاذ كافة التدابير الكفيلة بوقاية طعامه وشرابه وحمايتها وحفظها من التلوث.

وفي هذا المعنى، يقول جابر بن عبد الله إنه سمع رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول: « **غطوا الإناء وأوكوا السقاء، فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء، أو سقاء ليس عليه وكاء إلا نزل فيه من ذلك الوباء** »[1].

فهذا الحديث الشريف، يحث الإنسان في أي مكان وزمان أن يأخذ حذره وحيطته، خاصة فيما يتعلق بأمر أكله وشربه، فيجب الاعتناء بهما، والعمل على حفظ وصيانة المأكل والمشرب، حفظًا وحماية لهما من التعرض للتلوث، وحماية للإنسان من الإصابة بالأمراض الخطيرة.

وذلك التوجيه النبوي الشريف، ويوضح إلى أي مدى حرص الإسلام على محاولة

---

(1) رواه مسلم.

منع وقوع الأذى أو الضرر أو التلوث، وأن منعه قبل حدوثه أولى وأجدر من معالجته بعد حدوثه. فكما قال السابقون: "الوقاية خير من العلاج".

السنة المطهرة .. والحفاظ على الموارد وصيانتها:

كما أن الموارد الطبيعية المتاحة ليست ملكا لجيل الحاضر فحسب، وإنما هي للأجيال القادمة أيضا.

وإن موارد الطبيعة من كائنات حية وغير حية هي من نعم الله سبحانه وتعالى على الإنسان، ومن واجب الإنسان تجاه هذه النعم الثناء والشكر عن طريق المحافظة عليها والترشيد في استهلاكها، وعدم تلويثها حتى تستفيد منها الأجيال القادمة، وإساءة استغلال هذه النعم جحود بنعمة الله، وإضرار بالناس، وقد توعد الله الجاحدين بنعمه بالعقاب في قوله عز وجل: ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل ، الآية 112) .

فقد أمرنا الله سبحانه وتعالى باستغلال موارد الأرض دون هدر وإسراف فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص ، الآية 77) ، وقد نهانا الإسلام عن الإسراف والتبذير فقال تعالى: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ (الإسراء ، 26-27) ، حيث أن الإسراف والتبذير في الموارد يزيد في تضخم مشكلة تدهور البيئة، لذلك وضع الإسلام قواعد تمنع أي هدر في أي مورد، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ ﴾ (الفرقان ، الآية 67) . وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأنعام ، الآية 141) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لسعدٍ وهو يتوضأ: « **ما هذا السرف يا سعد؟** »، فقال أفي الوضوء سرف ؟ قال صلى الله عليه وسلم: « **نعم ، وإن كنت على نهر جار** » رواه الحاكم، وقال أيضًا لأعرابي سأله عن الوضوء، فأراه صلى الله عليه وسلم الوضوء ثلاثًا ثم قال: « **هكذا الوضوء، فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدى أو ظلم** » رواه

النسائي، فإن كان في الوضوء سرف وهو مدخل للعبادة، فكيف بالإسراف والتبذير الذي يتعدى حدود الحلال، والذي يُنَفَّذ بشكل واسع عند كثير من الأمم على مستوى الأفراد والجماعات والدول ؟!

ولقد وضّح الإسلام أن الحرام هو كل ما من شأنه أن يدمّر الإنسان وبيئته، وأن الحلال كل ما كان نافع للإنسان وبيئته وأن الحفاظ على البيئة واجبًا شرعا لأن الله تعالى نهى عن الإفساد فيها وهذا يقتضي إصلاحها والحفاظ عليها كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ (الأعراف ، الآية 56) .

السنة المطهرة.. والحفاظ على الحيوانات والرفق بها:

ومما لاشك فيه أن للوازع الديني الدور الكبير في حماية البيئة وتحسينها ووقاية الناس من الأمراض وتأمين الغذاء من مصادره حيث يمكن الاستفادة من التربية الإسلامية في بناء شخصية الفرد وتعزيز قيم العمل وإتقانه وتوجيه الناشئة للتمسك بالمثل والقيم العليا والاستفادة من كل ما خلق في هذا الكون المسخر لخدمة للإنسان بدون إخلال التوازن البيئي. فقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (الجاثية ، الآية 13) ، وقال تعالى أيضا: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل ، الآية 14).

فأما عن الكائنات في هذا العالم بنوعيها الحية وغير الحية سواء ما نعلمه أو ما لا نعلمه له وظيفتان وظيفة اجتماعية لخدمة الإنسان ووظيفة دينية وكونه آية على قدرةٍ إلهيةٍ صانعةٍ وراء هذا المخلوق وهو الله سبحانه وتعالى .

والله تعالى لم يخلق شيئا عبثا، بل لكل شيء منفعة وقد أثبتت الدراسات والأبحاث الكثيرة من المنافع لكائنات حية كنا نعدها من قبل ضارة أو بلا نفع أصلا بل إن منافعها تعود لبني البشر في النهاية وإن الإسلام أوجب علينا رعاية الحيوانات والاستفادة منها كما منع قتلها إلا لمصلحة ظاهرة وبالتالي فإن قتل الإنسان للحيوانات

البرية أو البحرية كان له الأثر الكبير بالإخلال بالتوازن البيئي .

وقد قال تعالى واصفا النحلة: ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ (النحل ، الآية 69) . وقال تعالى مبينًا لنا كثير من منافع الأنعام: ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (النحل ، الآيات 5-6). وقال أيضا: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (النحل ، الآية 80) .

ولقد دعا الإسلام لمعاملة الحيوانات برفق وعدم قتلها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **دخلت امرأة النار في هرة حبستها حتى ماتت لاهي أطعمتها وسقتها ، ولا تركتها تأكل من خشائش الأرض** » (متفق عليه) .

وقال أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (كنا مع رسول الله في سفر، فرأينا حمرة معها فرخان لها، فأخذناهما، فجاءت الحمرة تعرش (ترفرف جناحيها) فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(من فجع هذه بولدها ردوا ولدها إليها).

وقال صلى الله عليه وسلم: « **بينما كان رجل يمشي بطريق، إذ اشتد عليه العطش فوجد بئرا، فنزل فيها، فشرب، ثم خرج، فإذا بكلب يلهث، ويأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني فنزل البئر، فملأ خفه ماء، ثم أمسك بفيه حتى رقى، فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له، فغفر له** » قالوا يا رسول الله: وإن لنا في البهائم لأجر؟ فقال: « **في كل كبد رطبة أجر** ».

ناهيك عن الطاقة وترشيد استهلاكها فقد أمرنا بذلك صلى الله عليه وسلم : « **أغلقوا الباب، وأوكوا أي اثبتوا السقاء (الإناء) وغطوا الإناء وأطفؤوا المصباح، فإن الشيطان لا يفتح غلقا، ولا يحل وكاءًا ولا يكشف إناءًا، وإن الفويسق (الفأر الصغير) تضرم على أهل البيت نارًا تحرق بيوتهم** ».

وللنظافة نصيب الأسد في الإسلام فقد حث الإسلام عليها وأمر بها في كل حال في المسكن والملبس والمشرب والمأكل فمن الآداب الإسلامية المشروعة قبل الأكل نظافة اليدين وغسلها لما يترتب على نظافتها من الطهارة والرقابة من الأمراض ولما يترتب على عدم نظافتها من التلوث وانتقال الأمراض.

السنة المطهرة .. والآداب العامة:

فقد نهى الإسلام أن يُنفخ في الطعام أو في الشراب أو التنفس فيه لما قد يسبب ذلك نقل الإمراض من شخص لآخر. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم (نهى عن النفخ في الشرب.....) رواه الترمذي. وعن أبن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم: (نهى أن يتنفس في الإناء أو ينفخ فيه) رواه الترمذي. (ونهى صلى الله عليه وسلم عن اختناث الأسقية) متفق عليه. يعني أن تكسر أفواهها ويشرب منها (واختناثها يعني انطوائها وإنثنائها) .

وبالقياس فإنه يجب عدم شرب من فم الشِراب أو الدوارق، أو القوارير الزجاجية جماعيًا في الوقت الحاضر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشرب من فم القربة أو السقاء) رواه البخاري. فالنهي في الحديث الشريف دليل على الإعجاز العلمي في السنة المطهرة حيث أثبت الطب الحديث أن ميكروب السل يوجد في الشعب الهوائية للجهاز التنفسي للمريض وأن انتقال هذا المرض يكون عن طريق السعال والبصاق.

وهذا مصداق لما روي عن النبي أنه كان (إذا عطس وضع يده أوثوبه على فيه وخفض بها صوته) رواه أبو داود والترمذي. وقال عليه الصلاة والسلام (إذا تثاؤب أحدكم فليمسك بيده على فيه فإن الشيطان يدخل) رواه مسلم.

ومن الآداب الإسلامية والتي تعد وسيلة واقية من التلوث ونقل الأمراض ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها حيث قالت (كانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم اليمنى لطهوره وطعامه، وكانت يده اليسرى لخلائه وما كان من أذى).

فمن المحافظة على صحة أفراد المجتمع إتباع التوجيهات النبوية فعن أسامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا سمعتم الطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع في أرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها) متفق عليه .

ومن القواعد الصحية السليمة، ما أمرنا به رسولنا الكريم بتجنب كل ما ينقل الأمراض مثل الغبار كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (تنكبوا الغبار فإن منه النسمة) والنسمة هي مجموعة الكائنات الدقيقة، مثل: الميكروبات.

السنة المطهرة .. وحماية وصون المياه:

كما منع الإسلام تلويث الماء الراكد أو الجاري حتى من قبل الأفراد، فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (نهى أن يُبال في الماء الراكد) رواه مسلم، وقال صلى الله عليه وسلم: « **لا يبولنَّ أحدكم في الماء الدائم ثم يتوضأ منه** »، حتى لا يكون هذا الماء الراكد وسطا مناسبا لنمو الميكروبات وانتقالها ليسبب العدوى بين الناس، لأن هذا العمل ينشرُ الأمراضَ الخبيثةَ بين أفرادِ الأمةِ، وكذلك نهانا عن البول في ظل شجرة مثمرة، والبول في قارعة الطريق، ولعن من يفعل ذلك، لأنه يضر بالناس ضررًا كبيرًا، ومن باب أولى حرم علينا إلقاء النجاسات والقاذورات في الشارع أو في الأماكن القريبة من المساكن. وقال أيضًا « **اتقوا اللاعنين "إي الأمرين الجالبين للعن" قالوا وما اللاعنان ؟ قال الذي يتخلى "أي يتغوط " في طريق الناس أو ظلهم** » رواه مسلم .وعن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، وفي الظل** » (رواه الطبراني عن معاذ). فهذا الحديث الشريف يدعو ضمن ما يدعو إليه إلى النهي عن التبرز في المياه، لما يسببه ذلك السلوك من تلويث للمياه وإفسادها بما يجعلها مصدرًا لإصابة الإنسان بالعديد من الأمراض. فمن المعروف أن تصريف مياه المجاري (الصرف الصحي) في الأنهار والترع ومجاري المياه الطبيعية يؤدي إلى تلويث مياه هذه الموارد المائية بالطفيليات والفيروسات والبكتيريا، كما يجعل رائحتها كريهة ومنفّرة. وعلاوة على ذلك، يتسبب

وجود البراز والمواد العضوية المنصرفة مع مياه المجاري في استهلاك الأكسجين الذائب في المياه[1]، ويؤدي استنزاف الأكسجين من مياه المسطحات المائية إلى التأثير على حياة الكائنات الحية كالأسماك التي تعيش فيها. كما أن المواد العضوية المكوّنة للبراز والموجودة في مياه المجاري تؤدي إلى ازدهار أنواع عديدة من البكتيريا والكائنات الأولية (البروتوزوا) والطفيليات التي تسبب تلوث المياه.

كذلك، نهى الرسول صلي الله عليه وسلم من التبول في مجاري المياه الطبيعية بصفة عامة، فقال الرسول صلي الله عليه وسلم: « **لا يبولن أحدكم في الماء الجاري** »[2]. ويجيء هذا النهي الصريح عن التبول في المياه ليؤكد على أهمية المحافظة على المياه وصيانتها من التلوث بالطفيليات التي قد تخرج مع البول وتلوث المياه.

وفي المعنى السابق، تتواتر الأحاديث الشريفة، فعن جابر - رضي الله عنه - عن النبي صلي الله عليه وسلم، قال: « **لا يبولن أحدكم في الماء ثم يغتسل فيه** »[3]. فإذا كان الماء الراكد بطبيعته غير صالح للاستخدام، فإن الخطر يصبح أعظم إذا ما استخدم الإنسان هذا الماء الراكد للاستحمام الذي سبق التبول فيه. فهذا الماء يصبح، وبلا أدنى شك، مصدرًا لانتشار الأمراض المزمنة والخطيرة، مثل: البلهارسيا والكوليرا وغيرها.

ومما يؤثر عن الرسول صلي الله عليه وسلم، قوله: « **عظوا الإناء وأوكوا السقاء فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء**[4] **إلا نزل فيه من ذلك الوباء** »[5]. فهذا الحديث الشريف يدعو إلى ضرورة ربط فوهة الإناء الذي يشرب منه وعدم تركه عاريًا أثناء الليل، وذلك لحماية المياه من الملوثات التي قد تنتقل إليها من خلال الهواء والأتربة، أو بفعل الحشرات الناقلة للجراثيم

---

(1) وذلك أثناء عملية التحلل البيولوجي التي تقوم بها بعض أنواع البكتيريا الموجودة في المياه.

(2) رواه الطبراني بإسناد حسن.

(3) رواه البخاري.

(4) وكاء: غطاء.

(5) رواه مسلم عن جابر بن عبد الله.

والطفيليات كالفئران والصراصير والنمل والبعوض.

وكما ذكرنا من قبل، فإن الإسراف يعد أحد أشكال التلوث. ولذلك جاءت الأحاديث النبوية الشريفة لتؤكد هذا المعنى، وتحذر وتنهى عن الإسراف في استخدام المياه، مهما كانت الأسباب، وذلك بهدف الحفاظ عليها وصيانتها.

فقد أخرج ابن ماجه من حديث ابن عمر أن النبي صلي الله عليه وسلم مرَّ بـ "سعد بن أبي وقاص" وهو يتوضأ، فقال: **ما هذا السرف؟**. فقال: أفي الوضوء إسراف؟ قال: **نعم، وإن كنت على نهر جارٍ** ».

كذلك، أخرج مسلم من حديث أنس رضي الله عنه: "كان النبي صلي الله عليه وسلم يتوضأ بالمد ويغتسل بالصاع إلى خمسة أمداد".

فالإسراف - بصفة عامة - منهيٌّ عنه، ويتحقق الإسراف باستعمال المياه لغير فائدة شرعيو؛ كأن يزيد في غسل الأعضاء على الثلاث عند الوضوء أو استخدام المياه لغير حاجة ودون ضرورة.

ولما كان تلوث المياه يتسبب في حالات كثيرة من إزهاق الأرواح وفي قتل الأحياء، فإن درء هذا التلوث واجب، ومكافحته واجب ديني تنص عليه الآيات القرآنية وتدعو إليه الأحاديث النبوية الشريفة كما ذكرنا سابقًا.

السنة المطهرة .. والأصوات العالية:

لقد أمر القرآن الكريم - في العديد من المواقف - المسلم المؤمن بأن يخفض من صوته، حتى في أثناء تلاوة القرآن. وقد جعل ذلك بمثابة العمل الذي يؤهل المسلم المؤمن للفوز بمغفرة الله والأجر العظيم.

وفي الحقيقة، فإن المأثور من السنة النبوية قد أكد - في مواطن عديدة ومواقف كثيرة - ما أمر به القرآن ووجه إليه من ضرورة خفض الصوت.

ومما يؤثر عن الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم أنه رفض استخدام الأبواق (الميكروفونات) في الأذان، أو استخدام الطبول للإعلان عن الحروب، لما تسببه من ضوضاء

وضجيج وإزعاج. وما قد ينجم عنها من أذى وضرر للناس. ومما يؤثر عنه صلي الله عليه وسلم في هذا الشأن اختياره، بلالًا[1] رضي الله عنه، ليؤذن للصلاة في وقتها.

ومن المواقف - المتعددة - التي نهى الرسول صلي الله عليه وسلم عن الوقوع فيها لما يصدر عنها من أصوات عالية وضجيج، ما ذكره أبو قتادة؛ فعن أبي قتادة قال: بينما نحن نصلي مع رسول الله ﷺ إذ سمع جلبة خارج المسجد، فقال: (ما شأنكم؟)، قالوا: استعجلنا إلى الصلاة، فقال الرسول صلي الله عليه وسلم: « **لا تفعلوا، إذا أتيتم الصلاة فعليكم بالسكينة، فما أدركتم فصلّوا وما سبقكم فأتموا** ».

وكما هو واضح من الحديث الشريف، فهو يحمل نهيًا مؤكدًا عن الضجة والضجيج، حتى ولو كان ذلك يحدث بهدف إدراك أهم العبادات وأحد أركان الإسلام؛ وهي الصلاة.

كما نهى الرسول الكريم عن الضجة والصخب في الأسواق، فعن أبي هريرة[2] - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: « إن الله يبغض كل جعظري[3] جواظ[4] سخاب[5] في الأسواق، جيفة[6] بالليل، حمار بالنهار، عالم بأمر الدنيا، جاهل بأمر الآخرة)[7].

فلقد عرض هذا الحديث الشريف بعض الصفات التي يبغضها الله - سبحانه وتعالى - ويكره أن تكون في عبده المسلم المؤمن، ومن هذه الصفات المذمومة البغيضة: إحداث الجلبة والصياح والضجيج في الأسواق.

---

(1) وقع اختيار الرسول صلي الله عليه وسلم لسيدنا بلال - رضي الله عنه - للآذان للصلوات، لأن له صوتًا رخيمًا.

(2) أبو هريرة رضي الله عنه هو صحابي جليل، وهو أحد أكثر رواة الحديث.

(3) جعظري: هو الفظ الغليظ أو المتكبر الجافي عن الموعظة.

(4) جواظ: هو الضخم المختال في مشيته.

(5) سخاب: هو الرجل الكثير الجلبة والضجاج والخصام.

(6) جيفة: رمة، وهي بقايا الحيوان الميت.

(7) روى هذا الحديث "ابن حيان" في صحيحه.

ففي هذا الحديث الشريف دعوة إلى التحلي بالهدوء وخفض الصوت عند التعامل بالبيع والشراء في الأسواق. فربما كان من بين رواد السوق من تؤذيه الضوضاء وتضره الأصوات العالية، وتؤثر على صحته وحالته[1].

وهناك من المواقف - والتي على الرغم من انخفاض الصوت خلالها - ما نهى فيها الرسول صلي الله عليه وسلم عن إحداث ذلك الصوت، حيث إن الصوت المنخفض إذا ما تعددت مصادره أصبح أحد مصادر الضجة والضوضاء. ولذلك، نهى الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم عن إحداث أي صوت والخطيب يخطب من فوق المنبر (يوم الجمعة)، لما يمكن أن يسببه ذلك من ضجة تؤثر على سماع المصلين لصوت الخطيب، كما أنها تؤدي إلى حدوث الهرج، مما يزول معه جو الخشوع والسكينة التي يجب أن يتحلى بها المسلمون في موقف من أعظم المواقف، وفي مكان من أقدس الأماكن (المسجد)، وهو الإنصات إلى خطبة الجمعة. ولذلك، فقد جعل الرسول الكريم حدوث ذلك الصوت الخفيض سببًا في حدوث اللغو الذي يذهب بالثواب والأجر، فيصبح من أصدر ذلك الصوت، بلا أجر ولا ثواب.

فلقد روي أن الرسول صلي الله عليه وسلم قال: "إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب: صه[2] فقد لغوت، ومن لغى فلا جمعة له).

ولك - عزيزي القارئ - أن تدرك مدى الفوضى التي يمكن أن تحدث لو أن كل مُصلٍ تحدث - ولو بكلمة واحدة بصوت منخفض - مما يسبب ضجة وضوضاء لم يعد أحد قادرًا على الإنصات معها.

فهذا جملة من الآداب الإسلامية ما هي إلا قليل من كثير دعا إليها الإسلام وتكفل بحماية من يتبعها ويحافظ على تطبيقها من التلوث وانتقال الأمراض إليه، وكل

---

(1) يمكن الإطلاع على من مزيد من التأثيرات الصحية، والأضرار التي تصيب الإنسان وأجهزة جسمه المختلفة، بسبب الضوضاء بالإطلاع على كتاب "التلوث الضوضائي .. وإعاقة التنمية" د/ حسن أحمد شحاتة.

(2) وفي رواية أخرى: "أنصت".

ذلك يجعل الإنسان المسلم يقدّر البيئة الإنسانية والطبيعية ، ويقيها من التدهور والدمار، من أجل تحقيق بيئة الأمن والسلام على الكرة الأرضية. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء ، 107) .

فالدين الإسلامي بأوامره وتوجيهاته السامية قد سبق الغرب فيما ينادون إليه اليوم لحماية البيئة والمحافظة عليها فلو أحسنّا التمسك بديننا الإسلامي وتعاليمه وتبعنا جميع القواعد والأساسيات التي حث عليها فإننا بدون شك سوف نعيش عيشة هنيئة مطمئنة وبمشيئة الله خالية من الأمراض والوقاية خير من العلاج .